

قراءة في كتاب: الفلسفة الأخلاقية

تأليف: مونيك كانتو وراوين أوجيان

الناشر: المطبوعات الجامعية الفرنسية باريس ٢٠٠٤

الصفحات: ١٢٦ صفحة من القطع المتوسط

مؤلفا هذا الكتاب هما الباحثة الفرنسية مونيك كانتو سبيرير، مديرة المركز القومي للبحوث العلمية، والمشرفة على سلسلة مطبوعات جامعية تحت عنوان «الأخلاق والفلسفة الأخلاقية». بالإضافة إلى الباحث راوين أوجيان، وهو مستشار في المركز القومي للأبحاث العلمية.

في عملهما الجديد يقدم الباحثان خلاصة مكثفة لتاريخ الفلسفة الأخلاقية، ذلك أن مسألة الأخلاق كانت شغلت الفلسفة اليونانية والرومانية، ثم الفكر المسيحي الذي جاء بعدهما مباشرة، ثم فكر عصر النهضة في القرن السابع عشر، وفكر عصر التنوير في القرن الثامن عشر، وانتهاؤه بعصر الحداثة في القرنين التاسع عشر والعشرين. ومنذ البداية، يلاحظ المؤلفان أن الأفراد يطرحون باستمرار، بخصوص القضايا الأكثر تفاهة والأكثر خطورة، أسئلة من هذا النوع: ما الذي ينبغي أن أفعله بخصوص هذه القضية؟ ما الذي ينبغي أن أفعله أو لا أفعله؟ ما هي الحدود التي ينبغي أن تتوقف عندها أعمالي؟ إلى أي مدى يمكنني أن أذهب؟ ألم يكن من الأفضل أن أفعل كذا وكذا بدلاً من كذا وكذا؟... إلخ. والواقع أننا عندما نتصرف في الحياة، أو عندما نقوم بأي

عمل من الأعمال، فإننا نبحث عن تبريرات لأعمالنا، ونحاول البرهنة على أن ما فعلناه كان أفضل شيء يمكن أن يفعله، أو الأقل سوءاً.

وبحسب المؤلفين، إن الأخلاق مشكّلة من المبادئ والنواميس الخاصة بتحديد الخير والشر، وهي نواميس أو معايير تتيح لنا أن نحكم على أفعالنا البشرية سلباً أو إيجاباً. وهذه المعايير يمكن أن تكون قوانين كونية تنطبق على جميع الكائنات البشرية وتتحكم بتصرفاتها.

يتحدث الكتاب في الفصل الأول عن التصورات الكبرى للفلسفة الأخلاقية. وهنا نجد بلورة لنظرية الخير والتمام أو الكمال. ونفهم منها أن مفهوم الخير هو المفهوم المركزي للفلسفة الأخلاقية منذ العصور القديمة اليونانية - الرومانية وحتى نهاية القرن الثامن عشر.

وحول نظرية السعادة، يقولان: إن البحث عن السعادة يشكل أحد الدوافع الأساسية للعمل البشري، فنحن نطمح إلى السعادة لنا ولمن نحب.

وبعض الفلاسفة قالوا: إن كل ما يسعدنا من أعمال فهو أخلاقي، ولكن البعض الآخر قالوا العكس تماماً ونصحونا بأن نتقيد بالمبادئ الأخلاقية في سلوكنا وأعمالنا سواء أجلبت لنا السعادة أم لم تجلب... ومن أهم الفلاسفة الذين قالوا بالرأي الأول نذكر هوبز في القرن السابع عشر ودايفد هيوم في القرن التاسع عشر، وعموم الفلاسفة النفعيين

من إنجليز وسواهم فيما بعد.

وأما الاتجاه الثاني فقد تجلّى في فلاسفة كبار أيضاً من أمثال هيراقليطس في الزمن القديم، وكانط في عصر التنوير والحدائث. فهيراقليطس كان يتردد باستمرار بين اتباع الفضيلة التي لا يريق لها ولا فرح فيها وبين اتباع الرذيلة المحاطة بهالة الجاذبية والمرفقة بالمتعة والشهوة. وبالتالي فلا يوجد توافق بين الأخلاق والسعادة بحسب وجهة نظر هؤلاء الفلاسفة. فمن يريد السعادة والمتعة الحسية فليتبع الشهوات والرذائل لا طريق الأخلاق والفضائل. ولكن هناك خطأ آخر يقول: إن الأعمال الأخلاقية هي وحدها التي تقودنا نحو السعادة أو تجلب السعادة الحقيقية.

في الفصل الثالث، يتحدث المؤلفان عن نظرية المتعة والمنفعة، ويتناولان ما جاءت به أطروحات الفيلسوف الأميركي جيريمي بنتام (١٧٤٨-١٨٣٢)، وهو معاصر لكانط وإن كان أصغر منه سناً.

وهو يعتقد أنه وجد أساس نظريته في فلسفة أبيقور صاحب مذهب المتعة في الحياة. فكما استمتعنا أكثر وشبعنا من الشهوات والملذات كلما سعدنا أكثر وكانت حياتنا أفضل.

وهذا المنظور النفعي ينطلق من المبدأ التالي: كل ما يسبب لنا المتعة فهو جيد، وكل ما يسبب الألم فهو سيئ ولا أخلاقي. وقد سيطرت هذه العملية أو المنفعة على الفلسفة الأخلاقية الأنغلو ساكسونية في

قسم كبير منها.

ولكن الفيلسوف الألماني كانط عارضها وبلور نظرية أخلاقية أخرى مختلفة تماماً وقدم أسس نظريته الأخلاقية على مفهوم الواجب لا مفهوم المتعة واللذة. فأداء الواجب يشكل ذروة الأخلاق في نظره. ففي كتابه «أسس ميتافيزيقيا الأخلاق» يقول كانط بأنه ينبغي أن نضع لكل شيء حدوداً ما عدا الإرادة الطيبة. فالنية الطيبة لا ينبغي أن تحصر بالحدود أو بالقيود. إنها أسمى شيء في الوجود وأنبئ شيء.

من المعلوم أن كانط هو صاحب المبدأ الأخلاقي الأعلى المدعو بالإلزام القاطع أو الفعل الضروري في ذاته. وهو يقضي بأن تتصرف في أعمالك طبقاً للمبادئ التالية: تصرف طبقاً للمبدأ الذي يقتضي بأن يكون تصرفك ليس فقط فردياً وإنما قانوناً كونياً، ولا تعامل الآخرين كوسيلة وإنما كغاية. وهذا المبدأ الثاني يشكل أكبر احترام للكرامة الإنسانية.

وفي الفصلين الرابع والخامس، يواصل المؤلفان استعراض تاريخية الفلسفة الأخلاقية ليتناولوا قضية نظرية معرفية طالما اشتغل حولها الجدل الفلسفي وهي: نظرية الفضيلة والحياة الأخلاقية. وفيها أن التصور الأخلاقي الذي عبر عنه أرسطو والقديس توما الأكويني يركز على مفهوم الخير بالدرجة الأولى. فالفضيلة هي أن تفعل الخير لنفسك وللآخرين. والرذيلة هي أن تفعل الشر وتضر

العملية أو التصرف العملي الحكيم في الحياة.

أرسطو كان يعرف الفضيلة على أساس أنها نقطة وسطى بين حدين متطرفين في اتجاهين متعاكسين. فمثلاً الشجاعة هي حد وسط بين التهور والجبين. فلكي تكون شجاعاً ليس من الضرورة أن تكون متهوراً لا تحسب أي حساب للمخاطر كما يفعل بعض الانتحاريين. وأما الكرم فهو حد وسط بين الإسراف والبخل، فليس كل مسرف كريماً، وإنما الكريم هو الشخص الذي يعرف كيف يستخدم ثروته لإفادة الآخرين وإنقاذهم من الجوع.

يشكل هذا الكتاب استعادة معاصرة للنقاش حول الفلسفة الأخلاقية كما سبق وطرحها المؤسسون الأوائل من اليونان وحتى فلاسفة الحداثة. لكن الوجه الأبرز في هذا الكتاب هو الإشارات التي تدل على الوضع الراهن للمجتمع البشري، حيث يحتدم التناقض على أشده بين منطق المنفعة ومنطق الحق الطبيعي للإنسان. وهو الأمر الذي يعيد الاعتبار إلى وضع سؤال الأخلاق في صدارة أسئلة الاجتماع البشري في بداية القرن الحادي والعشرين.

بالمصلحة العامة. وعلى هذا الأساس يمكن الإقرار بأنه لا يوجد تناقض بين الأخلاق والسعادة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار النقطة التالية: فعل كل شيء من أجل إسعاد أكبر عدد ممكن من الناس في المجتمع.

فالأخلاق هي أن تسعد الآخرين وليس فقط نفسك، يقول القديس المسيحي أوغسطينوس: السعادة هي أن تسعد الآخرين، بمعنى أننا إذا ما استطعنا إسعاد الناس الذين نحبهم فإننا نكون قد حصلنا على أكبر سعادة في الوقت ذاته. وقمة الأخلاق هي أن تنام مرتاح الضمير إذا كنت تعرف أن جارك جائع مثلاً. وبالتالي فإذا كنت غنياً واستطعت إطعام جيرانك وإسعادهم فإنك تكون قد قدمت لنفسك أكبر سعادة على وجه الأرض. وهنا تكمن عظمة الأشخاص الكرماء ذوي النزعة الإنسانية العالية الذين يقضون عمرهم في الدفاع عن الضعفاء والفقراء والمهمشين في المجتمع. فهؤلاء هم المؤمنون الحقيقيون، وجزاؤهم عند الله كبير. وكثيراً ما ينفقون ثروتهم الشخصية أو قسماً كبيراً منها على المحتاجين.

في الفصلين الأخيرين، جرى تخصيص البحث حول مفهوم العقل العملي، والذي يعالج نظرية الأخلاق عند المعلم الأول ويتحدث فيها عن الحكمة